الفصل الرابع

علاقة العقل بالمخ

حققت التجارب ارتباط العقل بالمخ وتأثير أحدهما فى الآخر. ففى حوادث الارتجاع المخى يضطرب العقل، ويتعطل الفكر والوجدان، ويكون ذلك وقتيا إذا لم تضر الإصابة بجوهر المخ. وإلا ذهبت بالملكات الفكرية كلها أو بعضها. وارتجاع المخ أحيانا يكون ذريعة للشفاء من البله والجنون « وربما صحّت الأجسام بالعلل ».

تأثير وجدان الفرح والحزن :

وكذلك تؤثر المؤثرات الفكرية فى كيان المخ، فتضطرب أعصابه أو تنفجر خلاياه، فيحدث الشلل للجسم، أو يصعقه الموت، سواء فى ذلك أكان التأثير بالحزن أو بالفرح. أما تأثير الحزن فظاهر، وأما تأثير الفرح فمن حوادثه ما حصل للفردوسى من شعراء الفرس، فإنه نظم سيرة رستم باز « عنترة الفرس – الشهامة» فى ستين ألف بيت من الشعر، وقدمها إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى فى أوائل القرن السادس الهجرى، التزم فيها خلوها من الألفاظ العربية مع ما فى ذلك من الصعوبة، إذ أكثر الكلمات المستعملة فى ذلك اللسان عربية، فكافأه السلطان بدينار عن كل بيت منها، وبلغت هذه المنحة ستين ألف دينار، فهذا المقدار الجسيم خبل عقل الفردوسى وقضى عليه فتوفى فى ليلته من شدة ما اعتراه من

الذهول. كذلك يحدثنا التاريخ أن المتنبى طالت غربته عن وطنه، وكتب لجدته يسألها المسير إليه ببغداد فقبلت كتابه، وحمت لوقتها سرورا به، وغلب عليها الفرح فقتلها ومن مرثيته فيها قوله مشيرا إلى هذا:

أتاها كتابى بعد يأس وترحة فماتت سرورا بى ومت بها غما

وسبب ذلك أن الجهود الفكرية كالجسدية تثير الدورة الدموية. والحركة أيا كان نوعها، يلازمها احتراق الدم المار فى جزيئات الأنسجة البدنية والأعصاب عملا بنظرية الاحتراق البطيء . وإذا طالت هذه الحركات أو زادت على الحد المقبول، نفِد الدم الصالح للاحتراق، أو ازدادت الرواسب الفاسدة الناشئة عن هذا الاحتراق، وهى سم زعاف يمتصها الجسم فيستهدف للخطر، وتبدو عليه أعراض السم.

الملل من مواصلة العمل:

ومن هذا الباب إحساس الفتور والملل من مواصلة العمل. وما أشبه هذا الإحساس بصمام الأمن فى الآلة، ينذر الإنسان بضرورة تعطيل العمل، وإلا سعى إلى حتفه ووقع بين مخالب الموت. وعلى من أحس وقع التعب أن يستريح لا بالإخلاد إلى السكون، بل بالاستراضة فى الهواء الطلق، والتسلى برؤية المناظر البديعة. وربما اكتفى بغمض العينين ابتعادا عن تأثير النور، أو بسد الأذنين انصرافا عن الضوضاء، أو بالهرب من الشواغل والوساوس، أو بالنوم العميق، وهو أشد ما تصبو إليه النفس.

النوم:

ومن غفل عن إعطاء الجسم نصيبه من الراحة عقب المتاعب الفكرية، وكان قوى البنية سليم البدن، جاءه النوم قهرا. كان أرسطو ثقيل النوم لفرط ما كان يعانيه من بحث الشؤون الفكرية والخلقية والاجتماعية. ولا يمنع النوم أن يتشاغل عنه المكدود بالقراءة أو بالمشى، فقد علمت أن النائم قد يكون ماشيا. وكذلك لا يمنع

النوم وقوع الإنسان فى بحبوحة العذاب. فهذا ديميوس الذى اغتال حياة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ربطت أوصاله فى أربعة جياد فمزقت شر ممزق. ولم يترك المعذبون فى مقدورهم لونا من العذاب إلا جربوه فيه، عذبوه بالكى بحديد ملتهب وصبوا على جسمه الرصاص الذائب والكبريت المحرق والزيت المغلى. وكان إذا طال عليه العذاب بنوع منها، يحاول النعاس فينبهونه بعذاب آخر. وقد قال قبيل موته:« إن حرمانه النوم كان أفظع ما لقى من العذاب ».

إذا فهمت هذا عرفت الغرض الذى من أجله قرن المربون مطالب الجد باللعب فى نظام الدروس. فإن مجاوزة الحد فى كل منهما مذهبة للفائدة ومدعاة للسقم.

الروح أو النفس:

وصفها الإمام الغزالى بأنها جسم لطيف منبعه تجويف القلب ويتشر فى أجزاء الجسم بالعروق المبثوثة فيه كالسراج تنبعث منه أنوار الحياة، ووصفها ابن مسكويه بأنه ليست جسما ولا عرضا، بل جوهر بسيط غير محسوس، لأن الجسم لابد له من صورة، ولا يقبل صورة أخرى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى. فإذا قبل التثليث مثلا فلا يقبل التربيع والتدوير إلا بعد مفارقة الشكل الأول. وعلى خلاف هذا نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء على اختلافها محسوسة ومعقولة من غير مفارقة للأولى، ولا تزال تقبل صورة بعد أخرى من دون أن تضعف، بل هى تزداد بالصورة الأولى تهيئها لقبول ما يرد عليها من الصور الأخرى.

الروح:

فالروح – سواء أكانت جسما جريا على المذهب الأول، أن غير جسم ولا عرض جريا على المذهب الثانى – هى قرينة الدم، وحليفة الأعصاب الضاربة فى أنحاء البدن، والمبثوثة بين ذراته. وهى الفيض الإلهى الذى نفخه البارئ فى البدن بعد تسويته. ولها التدبير العام لمدركات الحواس، والملكات الذهنية، وأجهزة التنفس والهضم والإفراز... إلخ، تسعد وتشقى بنسبة الأمزجة التى يتألف منها

البدن، وتفتر إذا طال بها زمن اليقظة، فيأتيها النوم طوعا أو كرها، لتستريح وتسترد نشاطها. وإذا طوحت بها الطوائح ولم تعد تواقة إلى البقاء، انفصلت من البدن، وتركته يتقلب بين يدى الفناء.

وقد جاهد الفلاسفة ابتغاء الوصول إلى حقيقتها. وكلما أوغلوا فى البحث عنها وتغلغلوا فى كشف غامضها، وصلوا إلى حيرة، وقنعوا من الغنيمة بالإياب راضين بوصفها بأنها سر إلهى يصعب فهمه على البشر.

وقد ظهر أخيرا فى عالم الاختراع عدسة بلورية أنفذ المخترع من خلالها أشعة إلى جسم حى، فرآه قد أحاطت به أشعة مضيئة كالهالة سماها أشعة الحياة. ولما وجهها إلى جسم شخص يعالج سكرات الموت، رأى هذا الشعاع يتضاءل رويدا رويدا، وباختفائه انقضت الحياة. فظن المخترع أن هذا الشعاع هو الروح. ثم داخله الشك، لاحتمال أن يكون حدوث هذا النور من الحركة التى تؤديها جزيئات الجسم الحى. فيكون إذن من آثار الروح لا الروح نفسها.

وما أشبه الروح بالتيار الكهربائى، تراه ينفذ من خلال السلك المعدنى ولا تشاهده، ولا ترى فرقا بينه وبين سلك آخر ليس فيه تيار بحسب الظاهر. وإنما النور والحركة يدلان على هذا التيار الكهربائى فى الأول دون الثانى.